لبني قومه إلى «العودة» تحت قيادته إلى فلسطين، وانتهاء بمسعى فاشل أيضاً للرحالة الانكليزي لورنس أوليفانت (Oliphant) لدى الباب العالي (السلطان العثماني) لتأسيس شركة رأس مالها عشرة ملايين روبل لشراء أراض في الحوران وما جاورها، لينقل اليها يهود رومانيا وبولندا والاناضول.

ويعدد المؤلف أسماء الاشخاص الذين قاموا بهذه المساعي ما بين هاتين المحاولتين الفاشلتين، فيذكر ما ينوف على عشرين اسماً مع ايراد شروح مختصرة لكل من هذه المساعي، نقلها جميعها من مقال عن الصهيونية صدر في الموسوعة اليهودية (*Jewish Encyclopaedia,* Vol. VII: 666 - 686) الصادرة في نيويورك سنة ١٩٠٥. وهو مقال سيكون لنا حديث مفصل عنه لاحقاً لارتباطه، ارتباطاً وثيقاً، بالفصل الخامس من دراسة المؤلف كما سنبين.

وبعد ان ينهي المؤلف سرده لهذه «التشبثات»، يتطرق إلى تأسيس جمعية الاتحاد الاسرائيلي العمومي (Alliance Israelite Universelle) في باريس سنة ١٨٦٠، فيذكر ان هذه الجمعية عيّنت وكيلاً عنها هو تشارلس نيتر للقيام بمهمة استعمار فلسطين، لكنها ما لبثت ان «غيرت اعتقادها في امكان استرجاع فلسطين واعترفت بسقامة هذا الفكر وخطره وصرفت نظرها عن توسيع دائرة الاستعمار وحصرت مقصد الجمعية في تهذيب أخلاق اليهود وتعليمهم وجعلهم قادرين على اكتساب المعاش».

ويشير المؤلف، في هذا الصدد، إلى صدور فرمان سلطاني مؤرخ في ٣ محرم سنة ١٢٨٧ هـ / ١٨٦٩ م يورد نصه كاملاً. ويخول هذا الفرمان جمعية الاليانس انشاء مدرسة زراعية باسم «مكفيه يسرائيل» (Mekveh Israel) في ضواحي يافا، شرط ان تقبل «تلامذة من سائر الملل والمذاهب من التبعية العثمانية واعطاء الدروس مجانا لكل من يطلب من الخارج».

ويعلق المؤلف على هذه «التشبثات» جميعها، بما فيها تحوّل جمعية الاليانس عن فكرة الاستعمار، بقوله ان الحوادث كافة، من نشر الرسائل والمقالات وتأليف الجمعيات، والتي نقلها المؤلف عن مقال الموسوعة اليهودية، «اعتبرت كأنها حوادث منفردة وفلتات من أصحابها لا تأثير لها على اليهود» في الممالك الاوروبية الغربية. ويعتبر المؤلف ان نظرية مندلسون بقيت «هي المعوَّل عليها في أحوال اليهود المدنية»، وان اليهود في اوروبا الغربية ظلوا «يتشبهون بسكان المملكة المنسوبين اليها ويمتزجون بهم بالزواج والتنصر والمروق من الدين والتشبه بالمسيحيين حتى أصبح التفريق بين اليهود والمسيحيين في أوروبا الغربية من الامور المتعذرة». وفي سنة ١٨٧٠، منح حتى يهود الجزائر القومية الفرنسية، بينما بقي عرب الجزائر المسلمون « تحكمهم الادارة العسكرية بالاحكام العرفية».

وينهي المؤلف هذا الجزء من الفصل الرابع بقوله: «ففي سنة ١٩٠١ وهي افتتاح القرن العشرين للميلاد أصبح اليهود في جميع ممالك اوروبا عدا روسيا ورومانيا متمتعين بكافة الحقوق المتمتعة بها بقية أهالي المملكة ولا يفرقون عنهم في شيء سوى الاعتقاد الديني».

٤ ـ وضع اليهود في روسيا القيصرية وانتشار «الانتي سيمتزم» فيها: ويركز المؤلف، في الجزء الاخير من هذا الفصل، على حال اليهود في أوروبا الشرقية، وخصوصاً في روسيا القيصرية. ويبدأ بقوله انه بعد «ان ساوت دول أوروبا بين اليهود وغيرهم... كان يخال ان الوقت حان لروسيا أيضاً ان تعطي اليهود حريتهم». ولقد «أخذ مبدأ الحرية يتكامل شيئاً فشيئاً على عهد القيصر اسكندر الثاني لو لم يفاجئه ظهور الانتي سيمتزم أي مضادة اليهود بغتة سنة ١٨٨١ فأوقفت الحركة التشبيهية والترقي المشروع به وأجلى اليهود عن روسيا وزيادة على ذلك ايقظهم ونبههم للأماني الصهيونية».